# الخصوصية والكونية

الأزمة الحضارية الراهنة التي تتجلّى في تعمّم الصدامات بين الخصوصيات الفردية والجماعية، بفعل تمركزها على ذاتها في ظلّ كونية عولمية خادعة تهوى بنا حثيثا نحو قطب التوحّش الذي لا يقود إلاّ إلى الموت المعمّم، هي ما تشرّع لاستئناف التفكير في المسألة الحضارية عسى أن ننهض بمهمّة الإقبال على قطب التحضّر ضمانا لحكمة العيش معا، وتحقيقا للإنساني. فما الخصوصية؟ وما الكونية ؟ وهل يقتضي تحقيق الإنساني أن نقيم بينهما منطق الفصل منطق "إما هذا أو ذاك" أم أن نؤلف بينهما؟ وإن كان يقتضي التأليف بينهما : أفيتمّ ذلك بالاستمرار في الخصوصيات المتعصبة القاتلة والكونيات التماثلة المهلكة أم ببناء الخصوصيات المتجذّرة المنفتحة، والكونية التنوعية الايتيقية؟

**الخصوصية (الهُويّة) الثقافية الجماعية**

**(1)** الخصوصية عموما هي مجموع السمات العينية التي تفرّد كائنا ما (فردا أو جماعة) وتميّزه عن غيره، فلا يقع فيها اشتراك، وهي رديف الهُويّة فـ"هوية الشيء، وعينيته وتشخّصه ووجوده المنفرد له، كلّ واحد، وقولنا إنّه هو إشارة إلى هويّته وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك"."الفارابي".

والهوية هي من أكثر المسائل التباسا لمصيرية الإحساس بها بالنسبة للكائن البشري ولتقاطعها مع الإيديولوجي. وهي من أكثرها طرحا في زماننا العولمي الذي فيه اختلطت العلامات والقيم واخترقت فيه الهويات وحطمت الأسيجة المنطقية التي تحصّن بها ذاتها، ولإحساس الإنسان المعاصر بالشيئية في مجتمعاتنا المعاصرة المجتمعات الاستهلاكية التي أعلت من قيمة الأشياء وحطّت من قيمته فجعلت منه أداة لكل أداة. فما الذي يجعل من سؤال الهوية سؤال الانتماء الجماعي الثقافي؟ وهل أنها جماعيا وفرديا قدر يحمل أم بناء ينجز؟

**(2)** إن تساؤل الفرد عن هويته يتم وفق الصيغة التساؤلية "من أنا؟". وهو تساؤل يقوده إلى استكشاف انتمائه الجماعي الثقافي، مادام انتماؤه الجماعي الثقافي هو الأساس غير المرئي الذي تنبع منه هويته. أو إن شئنا قلنا أن هويته تتحدد بالهوية الجماعية الثقافية بحكم وجوده الضروري في إطار اجتماعي ثقافي. فالهوية بالنسبة للفرد متقبلة في البدء ضرورة.

**(3) تعريفها:**

- الهُويّة (الخصوصية) الثقافية الجماعية هي مجموع خصائص الحياة الاجتماعية، وطرق العيش والتفكير الجماعيَّيْن، وأساليب تنظيم الوقت والفضاء، واللغة، والدين، والبنى الأسرية، وطرق بناء المنازل، والأدوات، وطرق تناول الطعام أو ارتداء الملابس إلخ. إنّها سمات يستبطنها أعضاء الجماعة في شكل تمثّلات توجّه الممارسات، فتقدّم "مفتاح فهم العالم"، وتصل بين المنتمين لها أفقيا(بين المنتمين لها المعاصرين)، وعموديا (بين المعاصرين وأسلافهم) فتقيم وحدتهم.

وترتيب عناصر الهويّة ليس ثابتا فهو يتمّ بحسب الأغيار المراد تمييز الذات عنهم : فمَرَّة يقع إعلاء الدين ومَرَّة اللغة وأخرى العرق، أو بحسب موضع الإهانة أو الجرح الذي يحدثه الآخر: عرقي، ديني...الخ.

**(4) قيمتها بالنسبة للأفراد :**

هي الأكثر دفأ وحميمية من بين الهويات الجماعية بالنسبة للأفراد لأنّها تمثل جزءا غاليا منهم، هو ذاكرة الطفولة والحنين إليها، وإلى ما يُعمّرها من الأهل والأرض. ولأنها تشعرهم بالانتماء فتنقذهم من الإحساس بالتزعزع. وهو ما يجعلها تكون موضع الشعور بالفخر حين التفوّق، والحنين زمن الغربة، والحصن زمن الاضطهاد. وكل إهانة لها أو عدوان عليها يعدّ إهانة لهم ذاتيا وعدوانا عليهم، حَقًّا أشنع ردّ. وخسرانها يسقطهم في "أزمة الهوية" وهي حالة من التيه الشديد الذي تفقد فيه الأشياء دلالاتها والوجود معناه؛ تعجز فيها الذات عن توجيه ذاتها بافتقادها لإطارها الثقافي القيمي التوجيهي و"خريطتها" و"بوصلتها". وهي تجربة مؤلمة ومرعبة. وإن كانت من الممكن أن تكون دافعا للنهوض بمهمّة بناء الهويّة.

**(5)علاقتها بالهُويّة الثقافية الفردية:**

- الهوية الثقافية الشخصية تتحدّد بالهُوية الثقافية الجماعية لأنّ الفرد ينشأ ضرورة ضمن إطار اجتماعي ثقافي. لكن القول بأنّها تتحدّد بها بصورة مطلقة تسليما بالجبرية الاجتماعية - الثقافية، قول متهافت لتكريسه لنزعة تطابقية تشيؤ الفرد.

- الهوية تظل بالنسبة للفرد مشروعا وتوجّها نحو المستقبل، لا سجنا أبديا.

- الفرد قادر على بناء هويته الثقافية الذاتية بما له من قدرة على التحرّر وتجاوز وضعه والتعالي عليه، عبر العقلانية النقدية لثقافة الذات والآخر، لاختيار الحكم والفضائل أنّ وجدها.

- بهوية تكون من بنائه وخياره، ولا تكون مفروضة عليه اجتماعيا يكون الفرد أكثر سعادة واعتزازا بها، ووفاء لها، وتضحية من أجلها، وأكثر تسامحا مع المختلفين غير العادين.

← الهوية فرديا ليست قدرا يحمل بقدر ما هي بناء ينجز، وهي ليست انتماءً ووفاءً بقدر ما هي خيار وقرار.

**(6) سماتها** (انطلاقا من نظرة أنتروبولوجية خارجية موضوعية لا نظرة المنتمين لها الداخلية):

- أنّها إبداع بشري لمجموعة ما تنبني على وقائع الـ"عنف المؤسس". وتظل تبنى ويعاد بناؤها باستمرار في الذاكرة بخيار ما يذكر وما ينسى من الانتماءات المتعددة والوقائع الكثيرة وتمثلاتها ورمزياتها.

- أنّها تقوم على انتماء أوسع هو الهويّة الإنسانية يحجبه التعصّب[راجع (14)ص2].

- أنّها هجينة متعدّدة المنابع، أصلها التلاقح مع المختلف.

- أنّها تعدّدية تتضمّن الاختلاف داخليا بين خصوصيات الجهات ...، وبين نزعات محافظة وأخرى مجدّدة، برغم ميلنا لتصوّرها وحدة متماثلة.

- أنّها منغلقة ومنفتحة، في آن، منغلقة للحفاظ على ما يفرّدها، ومنفتحة للتجدّد والتطوّر حين لقائها بالمختلف.

- أنها غير كاملة فـ" كل الثقافات (الهويات الثقافية) لها حكمها وفضائلها وجهالاتها ورذائلها" "موران".

- أنها متغيّرة (ببطء شديد أو بسرعة)، وقابلة للتغيير بإرادة المنتمين لها أو كرها (الاستعمار، العولمة)، برغم ميل المنتمين لها لتصورها ثابتة مقتلعة من التاريخ وكاملة، واعتبار أنّ كل تغير انحطاط وفساد، حق معارضته بكل السبل لما يقود إليه من تفكيك لها وخروج عنها.

**(7) وجودها السويّ**

**(8)- حيويّتها :** ببنائها المستمرّ عبر النهل الإبداعي من موروثها وتلاقحها مع المختلف وهو ما يهبها قدرتها على مواجهة الحاضر والاستعداد للمستقبلي.(ضد الانغلاق القاتل(11)، والانبتات المميت(12)، و"التلفيقية الواهية"(13))

- **إنسانيتها :** تحضّرها بالاعتراف بالآخر والانفتاح عليه، بما هو شريكها في الانتماء إلى الإنساني، وشرط إخصابها وإثرائها وتقدّمها.

←تثبيتها وغلقها واختزالها في الموروث الثقافي قتل لها[راجع (11)ص2]، وتحويل لها إلى هوية حربية قاتلة لا إنسانية[راجع (14)ص2]. ولذلك فهي جماعيا ليست قدرا يحمل بقدر ما هي بناء ينجز باستمرار. وتجديدها، وتوجيهها نحو أن تكون الهوية الإنسانية أفقها الختامي، هو "خيانة شريفة" لها لكونه شرط الحفاظ على حيويتها وتحضّرها، وإنسانيتها.

**(9)الدفاع عنها وحمايتها:**

يتحققان بضمان حيويتها عبر التجذر والتلاقح ، الاعتزاز بأصالتها والانفتاح ، الجمع بين الموروث والمكتسب، الأصالة والحداثة.

"افتح نوافذي على كل ثقافات العالم، لكن دون أن أتركها تقتلعني من جذوري". "غاندي"

← ببنائها المستمر بالنهل الإبداعي من الموروث والانفتاح، وهما فعلان لا ينفصلان عن النقد: نقد كلّ الثقافات، لاكتساب الحكم والفضائل من أيّ منها دون اكتفاء وانتهاء.

**(10)أمراضها (عِلَلُهَا)**

**(11)الانغلاق** (سواء بدافع حمايتها أو التمركز): يفضي (بمنعها من منابع إخصابها وتجدّدها وثرائها: التلاقح مع المختلف) إلى سقوطها في تاريخ سكوني وتحنيطها وإخراجها من الفعل في التاريخ، وقتلها فـ "الهوية التي لا تتغيّر هوية ميّتة" "تودوروف". ويفضي إلى جعل المنتمين إليها "حراسا للذاكرة" و "خونة للهوية" لما تقتضيه منهم من إحياء مستمر لها، ومن قتلهم لها من حيث اعتقادهم حفظها وصونها.[راجع (8) و(9)]

**(12)الانبتات والذوبان في الآخر:** التخلي عنها من المنتمين لها بدافع رغبتهم في مواكبة الراهن، والاعتقاد بعدم قدرتها على مواكبته، أو أنها سبب تخلفهم وانحطاطهم، وهو دافع نابع من "ولع المغلوب بتقليد الغالب"."ابن خلدون".

**(13) التلفيقية :** الأخذ ببعض من الموروث وبعض من مظاهر الحداثة دون تجذر فعليّ وحداثة حقيقة. نتاج الوهن والعجز عن التأصل والإبداع.
← صورة كاريكاروتية عن الهويّة السويّة.

**(14) المركزية الإثنية (L'ethnocentrism) :**

- الإثنية (l'ethnie)هي المجموعة البشرية المتّحدة عرقيا وثقافيا.
← المركزية الإثنية = المركزية العرقية الثقافية.

**(وهي أخطر تجليات "الرغبة في الهوية وانحرافاتها القاتلة"، " أمين معلوف").**

**(أ) تعريفها (الاصطلاحي ):**
ميل لـ :
- تنصيب الذات العرقية - الثقافية في المركز (اعتبارها التجلي للثقافة والخير والجمال والكمال والكوني والإنساني) واعتبار المنتمين إليها الأخيار والطيبون والأفاضل.
- ولنزع صفة الإنسانية عن الآخر العرقي - الثقافي (متوحش، بربري)، أو تنزيله منزلة دونية (متخلف، مصدر الشرور، مُهدِّد للهوية بالتصدع والتفكك ، عدوّ يثير الخوف والرعب ويرتكب المذابح).
← مشروع استعباده أو استغلاله أو القضاء عليه.
- ولاعتبار التنوع العرقي - الثقافي خلل في الوجود ومصدر تهديد الهويّة بالتصدع والتفكك وسبب الصراعات والحروب .
← ضرورة القضاء عليه واستعادة الأصل : التماثل، بفرض ثقافة الذات .

**(ب) أسسها:**
نفسانية متينة : هي النرجسية الجماعية والرغبة في الهيمنة والولع بالتسيد وحب التملك. (ليس لها أسس علمية موضوعية وإن قد تدعي ذلك لتبرير ذاتها).
ورسوخ أسبابها في البنية النفسية للكائن البشري هو ما يجعلها ممكنة الظهور في أي مجتمع، فما من مجتمع متحضر بشكل نهائي وما من مجتمع بربري بشكل أبدي، وكل مجتمع يمكنه أن يكون هذا أو ذاك. وهو ما يعني أنّه ما من انتماء ثقافي أو ديني أو اثني أو طائفي أو مذهبي من حيث طبيعته متعصّب حربي قاتل، وإن كان من السهل أن يتحوّل إلى التعصب والحرب والقتل، بفعل متعهدي العنف الداخليين "حماة الهوية" و"حراس الذاكرة" المختزلين للهويّة في بعد وحيد يفصلها جذريا عن الآخرين، والمضخمين للأنا الجماعي والانتماء. والخارجيين الذين يسببون الاهانات ويحدثون الجروح النرجسية ، وينشرون الخوف والرعب.
وهوما يجعلها ممكنة الظهور أيضا في أية حقبة من أحقاب التاريخ، حتى حقبتنا الراهنة التي توحّد فيها المصير البشري إن للأسوأ أو الأفضل، وتيقنا فيها علميا من وحدة النوع البشري، وأعلنت فيها "حقوق الإنسان" الكونية.

**(ج) مفترضاتها:**
- صفاء عرق المنتمين لها ونقاء دمائهم وأن ثقافتهم هي الثقافة بألف ولام التعريف أو هي الكمال.
- الآخر العرقي الثقافي لا ينتمي الى الإنساني أو منزلته دونية.
- الاختلاف خلل في الوجود وشرّ مهدّد للذات بأزمة الهوية والتصدّع والتفكك والاضمحلال.

**(د) تبعاتها:**
- **على مستوى الذات الثقافية :** إفقارها بمنعها من منابع إخصابها وتجددها وتطورها : التلاقح مع المختلف.
- **على مستوى علاقات الذات الثقافية بالذوات الثقافية المغايرة:**
بانبنائها على "مفهوم الهوية القبائلي" : "المفهوم الضيّق والحصري والمتزمّت والتبسيطي الذي يختزل الهوية كاملة إلى انتماء واحد يُنَادَى به بغضب"، فإنها تحوّل الهوية إلى هوية حربية، "هوية قاتلة" ."أمين معلوف".
أعضاؤها من "السفاحين" الذين يرتكبون المذابح بدم بارد وراحة ضمير وفخر لكونهم يخوضون "حروبا مقدّسة" دفاعا عن الهوية والكرامة والشرف الرفيع ضد البرابرة المهددين على الأبواب يزرعون الخوف وينذرون بالفناء.
← تجعل من أجزاء البشرية "كيانات حدودية، بشكل ما ، تخترقها الصدوع الاثنية أو الدينية أو غيرها" فتثير لهيب الكراهية والعنف وحروب الإلغاء مع الآخر. فتحوّل العالم الى ساحة حرب بين الهويات الجماعية هي أشبه بحالة الطبيعة مثلما تصوّرها "هوبز" على مستوى علاقة الأفراد بعضهم ببعض، حيث تسود "حرب الكلّ ضدّ الكلّ".

**(هـ) الموقف منها :** وجوب رفضها ومحاربتها في الذات قبل الآخر لتعارضها - مفترضات وممارسات وتبعات - مع الإنساني في كونيته. [ إذ ترتدّ بنا نحو الوحشية اعتقادات: بناء صورة خاطئة عن الذات العرقية الثقافية (تضخيمها: اقتلاعها من التاريخ والنقص، وإنكار حاجتها التكوينية للآخر وجودا وتقدما، والزعم بصفائها وثباته وكمالها، في حين أنها هجينة متغيرة فيها عيوب )، والآخر (نفي أن تكون له قيمة أو التقليل من قيمته، في حين أنه شريكها في الانتماء إلى الإنسانية وشرط وجودها وثرائها وتقدمها )، والاختلاف (عدّه خللا وشرّا، في حين أنه معطى طبيعي وقوام الوجود والحياة وشرط الإخصاب والإثراء والتقدم ، فالتقدم لا يحدث أبدا في وسط متماثل، وإنما في وسط يعمّره الاختلاف، فليس الاختلاف هو المشكل بل التعصب، وسوء إدارة الاختلاف)، وممارسات: العنف الرمزي والمادي، ومآلات: الهلاك المعمم)]. ووعيا بمخاطرها كتب "كلود لفي شتراوس": "من واجب الإنسانية أن تحترس دون شكّ من كلّ خصوصية عمياء تنزع إلى قصور امتياز الصفة الإنسانية لعرق ما، أو ثقافة ما، أو مجتمع ما". ورفضا لها، وبضرب من المفارقة، عدّ بربريا من يعتبر الآخر بربريا.
← الحاجة للاعتراف بإنسانية الآخر، والانفتاح عليه، لضمان حكمة العيش معا، والدخول في قطب الحضارة الذي يرقى بنا نحو الإنساني عبر بناء الكونية.

**(1)** " مشروع الكونية مشروع الأمل" "روجي غارودي"

← الكونية مطلب ضروري لتجاوز صراع الخصوصيات (الهويات) وصدامها بفعل تمركزها العرقي أو الديني أو الاقتصادي أو العلمي التكنولوجي، وما يقود إليه ذلك من تفكك ، وسير حثيث نحو الانتحار الجماعي، في عالم هو في انحسار متسارع بفعل التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يسّر وسائل النقل والتنقل والاتصال، فحوّل العالم إلى " قرية كونية صغيرة". ولتحقيق الأمل في النجاة الجماعية والاستمرار في أنسنة الإنسان بإقامة الوصل. لكن عبارة "الكونية" وإن كانت من أكثر العبارات استعمالا وبريقا في زماننا، فهي مع ذلك تظل أكثرها عدم تحدد والتباس. فما الكونية؟ وهل ينبغي أن ننقذ أنفسنا منها بما هي جوهريا أداة هيمنة أم أن ننقذها من أنفسنا تمثلات فاسدة وتوظيفات مهلكة، بما هي شرط تحقيق الإنساني إن فهمت وطبقت بصورة مركّبة؟ وهل أنّ كل نزوع للخصوصيات إليها مشروع أم فيه ما هو غير مشروع ينبغي القطع معه؟

# الكونية

**(2) تعريفها (العام) :**

ما يشمل الكون ، ما هو مشترك بين كافة البشر أفرادا وشعوبا دون استثناء، ما له انطباق شامل شمول الكون .

والقيم الكونية هي القيم التي يشترك كل البشر أفرادا وشعوبا في الإيمان بها والعمل بمقتضاها لتوجيه السلوكات، من قبيل قيم الحرية والعدل والإخاء واللاعنف والتسامح وقبول الاختلاف...

كيف ينبغي فهمها وتحقيقها؟

**(3) فهمها الدغمائي التبسيطي:**

هي الوحدة الصماء المتماثلة : اشتراك كافة الأفراد والشعوب في حمل نفس الثقافة أي نفس أنماط التفكير والتذوق والسلوك وطرق الحياة. بإضفاء صفة الكونية على الثقافة الخصوصية للذات أو على ثقافة المتفوق في زمانه .

**(4) توظيفها الإيديولوجي :**

- استعمالها بمكر لإخفاء المشاريع الهيمنية وتجميلها.
- العولمة الراهنة أبرز مثال لهذا التوظيف. [راجع(4)ص4].

**(7) فهمها المركّب :**

هي الوحدة المتنوعة المتناغمة : الالتقاء في مشتركات إنسانية والحفاظ على الخصوصيات وتنميتها. ووعيا بذلك كتب "كلود لفي شتراوس": "لا يمكن للحضارة العالمية أن تكون على صعيد العالم غير تحالف للثقافات التي تحتفظ كل واحدة منها بخصوصيتها".

**(8) تحقيقها المرّكب :**

- بناؤها التشاركي دون إقصاء، عبر حوار الثقافات (حوار الحضارات).
- تجسيدها العقلاني : القانوني المؤسساتي، والقيمي الايتيقي بـ"إحياء كل دعوات العيش معا بحكمة التي يحتويها التاريخ" "كلود لفي شتراوس". وتحرير كلّ الطاقات الروحية الدفّاقة بالممكنات الخصيبة، المقموعة في زمن الفردانية المتوحشة.

**(5)** فهم وتطبيق غير ملائمين للوجود البشري بما هو وجود شديد التركيب فرديا وجماعيا. وجود هو نسيج يتشكل من الوحدة والكثرة. لأنه يترتّب عنهما تدمير الوجود الإنساني بإقصاء الاختلاف شرط الوجود والتقدم، وإحلال الوحدة المتماثلة الصماء.
" إنّ إنسانية متلبسة لنوع واحد من الحياة غير معقولة لأنّها تتحوّل إلى هيكل عظمي". "كلود لفي شتراوس"

**(9)** فهم وتطبيق ملائمان للوجود البشري بما هو وجود شديد التركيب فرديا وجماعيا. وجود هو نسيج يتشكّل من الوحدة والكثرة. لأنّه يترتب عنهما تحقيق الإنساني بحفظ الاختلاف وتنميته ( بما هو قيمة وجودية : شرط الوجود، وقيمة حضارية : شرط الإخصاب والإثراء والتقدم)، وصون الوحدة ( بما هي شرط الوصل والتعايش الحكيم).
"يتطلب الكوكب تفكيرا متعدّد الأبعاد (تفكيرا مركّبا) يكون قادرا على بناء رؤية كونية، ليست مجرّدة( تماثلية)، بل رؤية واعية بوحدة/تنوّع الوضع الإنساني، تفكيرا متعدّد الأبعاد (تفكيرا مركّبا) يتغذى من مختلف ثقافات العالم." إ . موران"

**(6) جعل الكونية "كونية الموت" :** كونية تهدّد الإنساني وتميته. فوحدة متماثلة دون اختلاف هي تأسيس لإنسانية مجرّدة مقتلعة من كلّ انتماء، تميت الإنسانية الواقعية التي قوامها الاختلاف وهو"كنزها الخلاق" وفق عبارة " إ دغار موران".

**(10) جعل الكونية "كونية الحياة" :** كونية تحقّق الإنساني، بتحقيق تعايش الهويات معا بحكمة. فـ "لسنا مجبرين على الاختيار بين أصولية الهوية أو تفكّكها"وفق عبارة "أمين معلوف"،أي بين "نفي الآخر" أو"إنكار الذات"، بما هما شرّان خالصان، وإنّما على اختيار تعايش الهويات الحكيم معا، وهو ما يقتضيه انتماؤها المشترك للهوية الإنسانية الجامعة.

**(11) التمييز في نزوع الخصوصيات للكونية بين ما هو نزوع مرضيّ ونزوع سويّ :**

لكلّ الخصوصيات نزوع نحو الكونية. وهو:

+ نزوع يتجلى في شكلين مرضيين :

- إضفاء صفة الكونية على ثقافة الذات والعمل على فرضها بالعنف على الآخر فـ" إنّ الإمبرياليّة هي نتيجة منطقيّة لإدّعاء الكونيّة" "صاموال هنتنقتون". ( شكل نابع من المركزية الإثنية).
- إضفاء صفة الكونية على ثقافة المتفوق/ الغالب والعمل على الاقتداء بها نموذجا للمحاكاة التامة (شكل نابع من عمى الانبهار بثقافة المتفوق، أي شكل من المركزية الاثنية المقلوبة)

+ نزوع يتجلى في شكل سويّ : بناء تشاركي دون إقصاء لكونية تعدّدية، كونية جامعة تقبل بحقّ الاختلاف قبولا حدّه "حسن حال الإنسان" "إريك فروم"، أي قوبلا دون الاختلاف في الحقّ، أو الإضرار بالذات أو الآخرين، عبر حوار حقيقي بين الثقافات له شروط اقتصادية وسياسية وايتيقية.

**(12)** أن تكون الكونية قابلة للفهم الدغمائي التبسيطي، وللتوظيف الإيديولوجي، اللذين يجعلانها تكون "كونية الموت" القاتلة للتنوّع بإحلال الوحدة الصماء المتماثلة، فلا يشرّع ذلك لليأس منها والزهد فيها، باسم الدفاع عن الخصوصية قوام الوجود، والتنوّع " كنز الإنسانية الخلاق". فهي الشرط الضروري لتحقيق الإنساني إن فهمت وطبقت بصورة مركّبة، لأنّ هذا الفهم والتطبيق المركبان يتضمّنان البعد الإيتيقي ضرورة. ورفضها مطلقا لا يؤدّي إلاّ إلى إقامة الكثرات المنغلقة على ذاتها المتصارعة فيما بينها دون رباط يجمع بين شتاتها، ممّا يحول دون تحقيق الإنساني. ولذلك فما ينبغي رفضه ومحاربته هو فهمها الدغمائي التبسيطي وتوظيفاتها الإيديولوجية. والعمل على بنائها وتحقيقها في فهمها المركّب، وهو رهان علينا أن نحققه ودونه الهلاك المعمّم.
ولأنّ الكونية التنوّعية شرط تحقيق الإنساني، كتب " أمين معلوف" : "بموازاة المعركة من أجل كونية القيم ، يجب النضال ضد التماثل المفقّر".

**(1) العولمة واقع راهن :** تحيا البشرية راهنا في مرحلة العولمة من العصر الكوكبي الذي دخلت فيه منذ القرن السادس عشر مثلما قدّر"موران". فما العولمة؟ وما هي وعودها (أو انتظاراتنا منها)؟ وما هي حقيقة واقعها الراهن : أهو واقع يرقي بالبشر سيرا على درب أنسنة وجودهم أم يلقي بهم في أتون وحشية جديدة : وحشية عالمة وتكنولوجية تنذر بالدمار المعمّم؟ وما الذي ينبغي إزاءها : أالقطع معها أم الاستمرار فيها كما هي أم أنسنتها بضبطها القانوني وتوجيهها الأخلاقي تحقيقا للكوني الإنساني؟

**(2) تعريفها :** من العسر جدّا تقديم تعريف نهائي شاف للعولمة ، لكونها ظاهرة مازالت في طور التشكّل بعد ولم تستوف مسار تشكّلها ، وربما لن تستوفيه، ولكونها موضوع المساجلات الايديولوجية المختلفة إلى حدّ التناقض. لكن يمكن القول إجمالا، وما هو بالقول الفصل، أنّها تدلّ على سيرورة انفتاح كلّ دولة / أمة على الكوكب إعلاميا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا، وعلى توسع التبادل على صعيد الكوكب بين الدول/ الأمم على كلّ المستويات، حتى غدونا نتحدّث عن كوكب متّحد تحول إلى "قرية كونية صغيرة"، يخضع مساره لتاريخية واحدة، من بعد أن كان لكلّ مجموعة بشرية تاريخية خاصة مفصولة عن بقية المجموعات.

**(3) وعودها** (مثلما يقدّمها مناصروها : الليبراليون الجدد وأصحاب الشركات المتعدّدة الجنسيات والولايات المتحدة الأمريكية ) **(أو انتظاراتنا منها):**

ـ تحقيق الوحدة الإنسانية عبر التحرر من الحدود الجغرافية والجمركية، ومن الحدود الرمزية: حدود الإيديولوجيات والاطلاقيات والكليانيات النابعة من الفهم "القبائلي" للهوية . والقبول بالاختلاف والتنوع وإقامة مفهوم "الأرض ـ الوطن" واقعا عينيا، وتحقيق "المواطنة العالمة" والمجتمع الإنساني المتّحد.

ـ تحقيق مجتمعات الوفرة والرفاهية والعدالة والديمقراطية والحرية والرقي الثقافي أي تحقيق الكوني التنوعي الإنساني.

← بلوغ "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" ( لو استعرنا عبارة "فرنسيس فوكوياما") : التاريخ الذي بلغ تمام تقدّمه، والإنسان الذي بلغ كمال تحضّره : اعترافا بالآخر، وقبولا بالاختلاف ، وتسامحا، وعيشا حكيما مع الآخرين .

**(4) حقيقة واقعها الراهن :**

ـ أنها مشروع امبريالي يعبّر عن تمركز الطبقات البورجوازية في العالم على ذاتها ورغبتها في السيطرة، ويستعمل الكونية بصورة إيديولوجية للهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإعلامية والثقافية، ويعمل على تحويل الكوكب إلى سوق كوكبية فيها يباع ويشرى كل شيء، لصالح توسّع رأس المال وانحطاط الغالبية الغالبة من البشر أفرادا وشعوبا. فـ" العولمة تؤسس لديانة توحيدية جديدة هي ديانة السوق" كما شخّصها "روجي غارودي".

ـ أنها بَنَتْ "ثقافة العولمة" وروّجت لها، عبر كلّ الآليات القاصفة للعقول، وهي ثقافة استهلاكية منحطّة هي نظير "الجهل المعمّم" المدمّر لكلّ الثقافات في العالم حتى الغربية منها. فـ " العولمة تبدو بشكل متزايد مدمرة للثقافات واللغات والطقوس والمعتقدات والتقاليد وكذلك مدمرة للهويات""أمين معلوف"

ـ أنّها حققت وحدة فعلية في الكوكب، غير أنّها وحدة امبريالية هي وحدة الهيمنة والسيطرة حيث الأغنى والأقوى يبسط الهمجية العظمى.

ـ أنّها، بما هي هيمنية تماثلية، فإنّها صراعية بالضرورة تفضي إلى "البلقنة": إلى التفكك، وإلى الفرار إلى حصن "القبائل" والهويات، وحتى إلى ابتعاث "الهويات الميتة والمميتة"، وإلى صدامها. ونحن بصدد "رؤية حاملي هذه الثقافات المهددة يتبنون مواقف أكثر فأكثر راديكالية وانتحارية".

ـ أنّها بـ"إقامة إمبراطورية الفوضى"(سمير أمين)، أدخلت البشرية في الغاب حيث يسود منطق الأقوى، وأسست لـ "كونية الموت" كونية السلطة الجهنمية والعنف المدمر: الناعم أو الوحشي، الفارض للتماثل، والذي نلقاه حيثما ولينا وجوهنا، امتثالا لإله الخراب سعيا لنيل ما يعد به : "الفوز" بالجحيم. ولتوحيدها الهيمنى التماثلي المهدد للخصوصيات بالطمس والإلغاء نشهد تمرّد الخصوصيات وبروزها في مرآة الكونية العولمية المهشمة، ورفضها المزدوج للعولمة والكونية. [راجع (12) ص3]

← أنّها "محرقة عالمة "، وهي نقض العالمية بما هي انفتاح تلقائي للخصوصي على العالم، على الكوني التنوعي الإنساني.

# العولمة

**(5) ما ينبغي تجاهها؟**

---

**القبول بها دون تحفّظ** (سواء استمرارا فيها أو انخراطا في مسارها )

**حجّته :**

ـ أنّ مسار التاريخ مسار تقدمي (يتجه إلى الأفضل باستمرار دون تراجعات أو ارتدادات أو نكوصات).

(أو) ـ أنّها مسار حتمي لا مردّ له.

(أو) ـ أنّ ما أفرزته من إشكلات وتفرزه، أمر طبيعي في مسار التقدم فمسار التقدّم لا يتمّ بصورة هادئة، وإنّما عبر الصراعات والصدامات العنيفة والدموية.

(أو) ـ أنّ رفضها ـ افتراضا ـ يفضي إلى العزلة والتخلّف والاضمحلال.

(أو) ـ أن مآلاتها تحقيق الإنساني بإلغاء الخصوصيات مصدر التمركزات على الذوات والصراعات التي تتضمنها راهنا، وببناء ثقافة كونية يحملها الجميع أفرادا وشعوبا تلغي الاختلافات الثقافية بينهم وتصهرهم فيها وحدة صماء متماثلة : نفس اللغة والمعتقد وأسلوب الحياة .

**الموقف منه :**

موقف متهافت لأنه يعمى عن تبين مساوئ العولمة ، أو عن تبين أنّ التاريخ ليس مسارا تقدميا، إذ قد تعتريه تراجعات ونكوصات وارتدادات. ولأنّه يشرّع للقبول بالكائن ولو كان غير إنساني، وعدم النهوض بتغييره نحو الإنساني.

---

**رفضها**

**حجّته :**

ـ أنّها، جوهريا لا عرضيا، مشروع امبريالي استعماري استغلالي، وطامس للهويات يعمل على القضاء على التنوع بإحلال التماثل الثقافي في الكوكب بنشر "ثقافة العولمة" خدمة للتوسع الرأسمالي بجعل الاستهلاك قيمة القيم ومنتهى الآمال وتمام الغايات.

ـ أنّ العولمة تقنية اقتصادية والكونية قيمية ، وهذا التناقض هو يجعلها مهلكة للكونية بأن تحوّل القيم الكونية إلى بضائع عابرة للقارات تباع وتشترى وفق قوانين العرض والطلب، فترتد إلى درجة الصفر من القيمة، وفي بيان ذلك كتب "بودريار": "الكوني يهلك بالعولمة".

ـ أن مآلها المحتوم هو أن تقودنا نحو "سوء الطالع الأخير" : "الانتحار الكوني".

ـ موقف عبّرت عنه وناضلت من أجله تيارات تتراوح بين أقصى اليسار وأقصى اليمين، الأولى باسم رفض الليبرالية المتوحشة ومالها الوسخ، والثانية باسم الدفاع عن الخصوصية (الهوية )وحمايتها.

**الموقف منه:**

موقف متهافت لكونه يعمى عن تبيّن فضائل العولمة : أنها أتاحت فرصة تاريخية لتحقيق الإنساني، ولأنّه يشرّع للعودة إلى عصور الشتات البشري حيث الكيانات الهوياتية المنغلقة على ذاتها والمتصادمة مع غيرها. مما يحول دون تحقيق الإنساني.

---

**أنسنتها بمراقبتها القانونية وتوجيهها الإيتيقي**

**حجّته :**

ـ عدم يقينية مآلاتها : "لا نعلم إن كانت العولمة أملنا الأخير أم سوء الطالع الأخير". "إدغار موران".

ـ أنّها ليست شرا أو خيرا في ذاتها، وما يجعلها تكون أحد الأمرين أو معا توظيفاتها البشرية، فـ " ليس المشكل في العولمة، وإنّما في الطريقة التي تدار بها العولمة" "جوزاف ستيغليتز"، ويقدر الإنسان على تقنينها وأخلقتها.

ـ أنّها ليست شرا أو خيرا محضا واقعيا، فصحيح أنّه فيها مدّ لقوى الموت طاغ ، ولكن فيها، أيضا، وعي جنيني بالهوية الإنسانية، ووحدة المصير البشري، والأرض ـ الوطن، والمواطنة العالمية، ينبجس.

ـ أنّها أسست البنية التحتية لقيام المجتمع الأممي المتحدّ بإقامة شبكات النقل والإيصال. ما يجعلها تكون فرصة تاريخية لتحقيق الوحدة البشرية التنوعية برغم واقعها اللاانساني الراهن الطاغي ، بقيادتها المشتركة.

ـ إمكان إنشاء "عولمة بديلة" فيها تتحقق "عولمة الثقافة"، فيها يتحقق الكوني الإنساني بما هو "الوحدة المتنوعة السنفونية" " غارودي" [راجع(7) حتى (11)ص3].

**الموقف منه:**

موقف وجيه لأنّه يعي بازدواج ما أنتجته العولمة. ولأنّه يعلم أنّ العودة إلى ما قبل العولمة أمر غير ممكن واقعيا، وأنّها عودة غير مأمولة عقلا وواقعا لأنها تفضي إلى العودة إلى عصور الشتات البشري. وتحول دون تحقيق الوحدة الإنسانية، التي تقتضيها إنسانيتنا المشتركة والتي نصّبتها العقول النيّرة والإرادات الخيّرة هدفها الأسمى. وأنّ تحقيقها يقتضي أنسنة العولمة : تقنينها وأخلقتها .

**استخلاص في بيان كيفية تعامل الهويات مع العولمة:** تعامل الهويات مع العولمة للدفاع عن ذاتها في وجه أصوليات الطامحين لتفكيكها عبر "ديانة وحدانية السوق"، إذن، لا ينبغي أن يكون بالانخراط المساير"الأبله" فذلك تدمير لها، فـ"إن فقدت هوية ما، مواردها الثقافية الخصوصية التي لا يشاركها فيها غيرها فقدت وجودها" وغدت ذائبة في غيرها [راجع (12) ص1]. ولا بالانطواء على الذات والانغلاق إيمانا بـ"الأمس الأبدي" و"العصر الذهبي" و"الماضي الألمعي" وتسليما بأنّ التقدّم انحطاط وفساد للأصل[راجع (8) و(9) و(11) ص1]. ولا بالعنف بما هو مدمر للآخر ومتمادي في اغتيال الذات [راجع(14 وتفريعاتها) ص2]. وإنما بتجذّرها واعتزازها بأصالتها دون الاستغراق في الموروث الثقافي، وانفتاحها على الآخر دون التيهان في الوافد الثقافي، أي بتحضّرها ما دام التحضّر هو الذهاب نحو لقاء الآخر دون القطع مع الخصوصي[راجع(6) ص3]، وهو ما يقتضيه الوجود الإنساني بما هو وجود شديد التعقيد فرديا وجماعيا ونوعا، فيه الهوية (فردية أو جماعية) هويات متراكبة داخل الهوية الإنسانية التي ينبغي تجذير الوعي بها، والعمل على تجسيدها بالنهوض بإيتيقا النوع الإنساني المتضمنة لكل الايتيقات إيتيقا الاختلاف، إيتيقا التسامح، إيتيقا التواصل، إيتيقا اللاعنف، إيتيقا الصداقة، إيتيقا الغيرية، إلخ.عبر بناء تشاركي للكونية التنوعية الإيتيقية [راجع(7) حتى (11)ص3].

## استنتاجات عامة حول مسألة الخصوصية والكونية :

- **تحيا البشرية راهنا في أزمة حضارية عميقة** غير خافية، هي بعد من أبعاد أزمة عميقة شديدة التركيب يتداخل فيها الفكري بالعلمي بالاقتصادي بالسياسي بالبيئي إلخ، قد تقود إلى الهلاك الكوني بفعل التحام الوحشيات الآتية من أعماق التاريخ مع الوحشية العالمة والتكنولوجية المعاصرة.
- **ما سبّب هذه الأزمة الحضارية العميقة:**

ـ **تعمّم الخصوصيات (الهويات) العمياء المتعصبة المتمركزة على ذاتها** التي لا تكون إلاّ حربية قاتلة، في كوكب قد أضحى " قرية كونية صغيرة" توحّد فيه المصير البشري: فإمّا موت جماعي أو حياة جماعية، وفي عصر أثبتت فيه علميا حقيقة وحدة أصل النوع البشري والهوية الإنسانية، وأعلنت فيه "حقوق الإنسان".

ـ **العولمة السائدة التي استعملت الكونية بصورة إيديولوجية للهيمنة** فجعلت منها "كونية الموت" بما أحدثته وتحدثه من تدمير ممنهج ناعم أو عنيف للهويات (للخصوصيات) وتهديد للاختلاف وسير نحو القضاء عليه، لفرض ثقافة عولمية استهلاكية تختزل البشر أفرادا وشعوبا، في بعد وحيد هو البعد الإنتاجي ـ الاستهلاكي، ليكونوا محرقة لنمو الاقتصاد وتحقيق الثراء الفاحش للبعض على حساب الأغلبية الغالبة، مكرا رأسماليا. وبما أفرزته من عودة إلى "زمن القبائل" وحصونها العزلة ، وزمن حروب الهويات العرقية أو الدينية أو غيرها، القاتلة.

- **تحقيق الإنساني، وهو وحده المشروع الجدير بأن ننهض بمهمة تحقيقه، يقتضى منّا :**

**+القطع مع الإيغال في الوحشية والانحدار نحو الهاوية بـالتخلّص من :**

ـ **الخصوصيات (الهويات) العمياء** المتعصبة العنصرية الامبريالية، المتعارضة مع الكونية وإن ادعت امتلاكها، ومن ثمة المتعارضة مع الإنساني.

ـ **الكونيات الزائفة** فهما وتوظيفا (العولمة الراهنة مثلا)، المتعارضة مع الخصوصيات (الهويات) وإن ادعت حفظها، ومن ثمّة المتعارضة مع الإنساني.

**+ التوجّه للارتقاء نحو الحضارة وضمان حكمة العيش معا، ببناء :**

ـ **الخصوصيات (الهويات) المتعددة المركّبة المتحضّرة**، المتجذّرة في أصولها والمنفتحة على الآخر: اعترافا وتسامحا وتعايشا وتثاقفا. فهو السبيل لـ" ترويض وحش الهوية" أو استعرنا عبارة "أمين معلوف". فـاختلاف مقدساتنـا وألسنتنا إلخ، لا يمنع من تلاقينا وتواصلنا وتعارفنا وتضامننا وتعاوننا وتعايشنا معا بحكمة، وهو يقتضي منّا أن نغير صورنا عن أنفسنا والآخر والاختلاف، التي تنبع من أوهام الهوية أحادية البعد، التي تنفي الطابع المتعدد لهويتها بغاية تصنيف الهويات وفـــق خطّ تقسيمي جذري للعمى عن انتماءاتها المشتركة وأهمها الانتماء المشترك للهوية الإنسانية الجامعة، بغاية إثارة الكراهية وبث الفرقة وتعهدّ العنف.

ـ **الكونية التنوعية** التي تقيم الوحدة وتحفظ التنوع، بناء تشاركيا تعاقديا عبر حوار الحضارات، البديل الوحيد لصدامها. وما يقتضيه ذلك من أنسنة للعولمة.

⟵ ليس لنا، لتحقيق الإنساني، إلاّ تحمّلنا لمسؤولياتنا أفراد وشعوبا عن واقعنا ومصيرنا المشترك تحقيقا للأمل بالنجاة الجماعية، بالنهوض بـ**"الواجب المزدوج"** الذي تأمر به الأنتروبو- إيتيقي (إيتيقا النوع الإنساني) : **"أنقذ الوحدة وأنقذ التنوع"، لأنه لا يكون الإنساني من دون وحدة تتضمّن التنوّع وتبدعه، وتنوّع يتضمّن الوحدة ويبدعها (أى دون كونية تنوعية متناغمة). فالوحدة دون تنوّع ليست إلاّ التماثل القاتل، والتنوّع دون وحدة ليس إلاّ التفكك المهلك.**

**تدريب حول سؤال :**
**هل من الممكن تحقيق لقاء بين الثقافات لا يكون قاتلا للجميع؟**

**التمهيد:** المفارقة بين تحوّل الكوكب إلى "قرية كونية صغيرة" وهو التحوّل الذي يشرّع للقاء الثقافات التعايشي الخصيب، وواقع لقائها الصراعى المنذر بقتل الجميع، إمّا بقتالها الهيمنى المتبادل، أو الهيمنى والمقاوم. وإما بابتلاع ثقافة للبقية وقتل الاختلاف.

**الإشكالية:** هل من المستحيل تحقيق لقاء للثقافات لا يكون قاتلا للجميع، بما أنّ الصدام هو ماهية العلاقات بينها أم هو أمر ممكن، ومن الضروري اتخاذه رهنا، لأنّه الجدير بإنسانيتها المشتركة، أيّة شروط حينئذ ينبغي توفّرها؟

**(1)**أمر مستحيل التحقيق من حيث المبدأ والواقع.

**حجّته :**
ـ ملازمة الميل للتمركز على الذات لكلّ الهويات الفردية والعامة، لأسسه النفسانية المتينة **:** النرجسية والرغبة في الهيمنة في كلّ المجالات الثقافية، والاقتصادية...
ـ لا منطق بين الثقافات/الحضارات إلاّ الصدام. وهو الموقف الذي أسس له "صاموال هنتنجتون" في كتابه "صدام الحضارات".

**الموقف منه :**
موقف متهافت لأنّه يسلّم بأنّه لا يمكن مغالبة هذه الأسس النفسانية المتينة، في حين أننا قادرون على مغالبتها، وشرفنا لا يكمن في الانسياق معها، وإنما في قهرها. ولأنّه يسلّم بالصدام أصلا للعلاقة بين الحضارات/ الثقافات، في حين أن الأصل بينها التعايش والتثاقف. ولأنّه يفضي لتبرير هيمنة الأقوى (وراهنا للثقافة/الحضارة الغربية في صورتها الأمريكية). ولأنّه يشرّع لاستمرار الصدام بينها المنذر بالهلاك الكوني، لعظم وسائل التدمير والإفناء في زماننا.

**(2)** أمل ممكن التحقيق من حيث المبدأ والواقع، ورهان علينا السعي لتحقيقه.

**(أ) أسسه :**
ـ وجود هويّة إنسانية جامعة هي الأشد أهمية من كل الانتماءات الخصوصية ، دون أن يعنى ذلك نفي أهمية هذه الانتماءات، وهي هوية يحجبها التعصّب النابع من الفهم "القبائلي" للهوية، والفكر التبسيطي الذي يقف فقط عند ملاحظة التنوّع البشري الهائل فيسلّم بالتنوع الجذري والنسبية المطلقة أي نفي أن تكون ثمّة مشتركات تجمع.
ـ الصدام نقيض الإنساني.
ـ الأرض ملك للجميع، وتناهيها بما هي دائرة الشكل يحتّم اللقاء، ويوجب النهوض بتحقيق "مشروع للسلام الدائم". "كانط"

**(ب) معوقاته:**
ـ المركزيات الإثنية وما تفرزه من انغلاق ورفض للانفتاح على الآخر، وعدوان عليه رمزيا أو ماديا.
ـ الانبهار بالمتفوق وكراهية الذات الثقافية.
ـ التلفيقيات.

**(ج) سبيله :**
حوار الثقافات بما هو البديل الوحيد للصدام واقعا أو تنظيرا.

**(د) شروطه :**
+أن تتجه الهويات نحو المستقبل "تاركة وراءها زمن القبائل وزمن الحروب المقدّسة وزمن الهويات القاتلة لكي تبني شيئا مشتركا" "أمين معلوف "، وهو ما يتضمّن:
ـ القطع مع التمركز والهيمنات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإعلامية والثقافية، والاعتراف بإنسانية المختلف في غيريته.
ـ القطع مع أحقاد الماضي وجروح الذاكرة.
ـ القطع مع الجمود على أشكال موروثة من الماضي.
ـ انجاز نقد دون مجاملة أو تجني بالاستناد إلى منطق الحجّة الأفضل لبناء كونية تنوعية إنسانية، لأنّه وإن كانت الثقافات متساوية القيمة، فإنّ ما تتضمّنه من قيم لا تتساوى القيمة : فمنها الإنساني ومنها خلاف ذلك.
+الاعتزاز بأصالة الثقافة الخاصة والإبداع، في ذات الآن. وبذلك تعصم ذاتها من أن يسقطها هذا اللقاء في "ريبية غائمة" تفضي بها إلى "أزمة الهوية"، أو فى "تلفيقية واهية"."ريكور"

**الاستخلاص:** لقاء الثقافات غير القاتل للجميع ممكن وعلينا النهوض بشروطه تحقيقا للإنساني.